دور علم النفس والتربية في التنمية البشرية (*)

أ. د. فؤاد أبو حطب

كلية التربية – جامعة عين شمس

فى تجربة سابقة ، مر عليها سنتين ، وفى جامعة قطر عقد مؤتمر عن «دور العلوم التربوية والنفسية فى التنمية البشرية» ، وقد شاركت فى هذا المؤتمر ، وقد حاولت قراءة ما سبق وأن كتب فى مجال التنمية البشرية – ولست أدعى الخبرة فى مجال التنمية – ووجدت – فى تصورى – أن هذه القضية تحتاج إلى نظرة جديدة ومن منظور جديد . وعلى الرغم من التغيرات التى شهدها المجال فى خلال النصف قرن المنقضى إلا أن من الملفت للانتباه أن الذين يتحدثون عن التنمية البشرية بمجالاتها العديدة سواء فى المجال الاقتصادى أو المجال الاجتماعى أو المجال الثقافى هم خبراء الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع ، ولا أجد أحداً من المتحدثين يشار له بالبنان من علماء التربية وعلم النفس ، وعلى سبيل المثال إذا نظرنا إلى فقه التنمية البشرية بمعناه العام فى التراث الثقافى والإسلامى نجد أن عدداً كبيراً من المفاهيم يمكن أن ترد إلى أصلها السيكولوجى والتربوى .

وعلى سبيل المثال ، أيضاً ، نجد أنه حين يتحدث فقهاء التنمية عن قضية الحاجات البشرية فهى فى جوهرها قضية سيكولوجية تربوية ، وحينما يتحدثون عن العمل باعتباره أحد متطلبات التنمية نجد أن قضية العمل – باعتبارها جزء من هوية ووجهة تكوين الإنسان – قضية تربوية نفسية ومع ذلك لا يشار إليه فى التراث التربوى والنفسى .

وأود أن أشير هنا إلى قضية هامة جداً تعيشها عدد من المجتمعات ومنها مجتمعنا ، ألا وهى قضية «عمالة الصغار وبطالة الكبار» وهى قضية تحتاج إلى تناول

(*) ألقيت هذه الورقة يوم الثلاثاء ٢٠٠٠/٤/٢٥ فى ندوة ضمن أعمال المؤتمر الذى أقامته كلية التربية – جامعة الزقازيق بعنوان «دور كليات التربية فى التنمية البشرية فى الألفية الثالثة» . وهي ملخص لما سبق أن قدم في الندوة التي أقامتها كلية التربية – جامعة قطر . موضوعها «علم النفس وآفاق التنمية في دول مجلس التعاون الخليجى ١١ – ١٣ مايو ١٩٩٨ بعنوان «دور علم النفس فى خدمة التنمية البشرية » وقد تمت كتابة هذه الورقة من واقع تسجيل للمؤتمر . وقد أثرنا نشر الورقة الأصلية وما ألقي فى الندوة .

جاد . أود أيضاً أن أشير إلى قضية التعليم !! فهل يمكن أن ننظر إليها على أنها قضية اقتصادية بحتة أو قضية اجتماعية فقط أو قضية تربوية أيضاً ؟ .

إذاً نحن المتخصصون فى أشد الحاجة إلى منظور آخر نسهم فيه فى مجالات العلوم التربوية والنفسية بشئ من الجدية .

وأود أن أقول أننا نحن المتخصصون فى مجال علم النفس الذى أتشرف بالانتساب إليه أننا لم نصنع فى مجالنا ما يمكن أن نسميه «علم نفس التنمية» بالرغم أن لدينا علم نفس النمو ، فنحن بحاجة إلى بناء هذا المنظور الجديد للتعامل مع قضية مجتمعية من أخطر القضايا ، غياب العلوم الإنسانية عنها «علوم النفس والعلوم التربوية» غياب غير مبرر على الإطلاق .

القضية الأخرى التى عانى منها علم النفس رغم تغير المنظور لفترة ، هى أن علم النفس ظل لفترة طويلة مشغولاً بالجوانب السلبية للسلوك الإنسانى ودراسات الاضطرابات السلوكية والتى شغلتنا عن قضايا السلوك الإيجابى على الرغم من أن السلوك الإيجابى يعد أحد القضايا الأساسية فى مجال الصحة النفسية باعتبارها قضية الإنسان السوى والسلوك السوى والعادى باعتباره يحتاج إلى مزيد من الرقى والتنمية والارتقاء لا تشغل الاهتمام بالقدر الكافى .

وفى عام ١٩٤١ حين انتخب إدوارد فروبيل رئيساً للجمعية الأمريكية لعلم النفس ، وحسب تقاليد الجمعيات العلمية أن يلقى رئيس الجمعية محاضرة تذكارية ، ألقى طولمان محاضرة كان عنوانها «The Psychological man» وتناول فيها المنظور الإنسانى والإيجابى والإبداعى الخير الطيب للسلوك الإنسانى وليس الجانب الأخر للسلوك (علم النفس الإنسانى فيما بعد) .

ينقلنا ذلك إلى مفهوم هام جداً يحتل الآن الأولوية المطلقة فى قضايا التنمية البشرية وهو قضية نوعية الحياة «quality of life» فالمؤشرات الفنية التى سادت وأثرت على مدى العقود الخمسة الماضية لم تعد هى وحدها مؤشرات التنمية . فلم يعد التناول الكمى وحده كافياً وأصبح التغير إلى الكيف مسألة جوهرية .

ولذلك أصبح الحديث عن نظرية الحياة وقيمة الحياة والارتقاء بالحياة مهم جداً . فكيف يمكن أن نتحدث عن نظرية الحياة !!!

هل الحياة الإنسانية حينما نتعامل معها من منظور الحياة على أن الإنسان حيوان اقتصادى (مصطلح موجود فى التراث التنموى) هل التعامل معه من منظور أن التعليم لمجرد تحقيق الحد الأدنى للأداء المدرسى أم أنه من أجل الإتقان . ومفاهيم

أخرى كثيرة (حيث يحتاج الإتقان إلى معايير كثيرة لتحدده) .

ينقلنا ذلك إلى تساؤل هام جداً ألا وهو هل مؤشرات جودة ونوعية الحياة (التحول إلى الكيف) من المتوقع أن تدخل إلى العالم الشخصى للإنسان ... ؟ .

وهل من المتوقع أن نعيش فى بيئة نظيفة وراقية ومتقدمة خارجياً دون الدخول إلى العالم الداخلى للإنسان ؟ .

أخيراً هل نظرية الحياة منفصله عن مفهوم السعادة الموجودة فى حياة الإنسان اليومية . وهل السعادة مفهوم يقبل التعامل معه ؟

الإجابة : نعم !! . وهناك العديد من الدراسات التى تجرى الآن حول السعادة من المنظور السيكولوجى ومن المنظور التربوى ومن المنظور الاجتماعى . وهل مفهوم السعادة حينما يصبح مرادفاً لمفهوم نظرية الحياة ويصبح المفهومان جزءاً من منظومجة التنمية البشرية يصبح للحياة معنى أكثر . الإجابة : نعم !! لأن العصر القادم سيركز أكثر على المعنى والمغزى والجدوى فى التعامل مع الأشياء ومع الحياة .

لذلك لابد أن نعرف خريطة للتوجه إليها والتعامل معها .